المجلد ٨ الجزء ١٠

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : تشرين اول سنة ١٩٢٨ م الموافق ربيع الثاني وجمادى الاولى سنة ١٣٤٧ هـ

المعاصرون (١)

الشيخ طاهر الجزائري

أصله ونشأته

هو طاهر بن صالح بن احمد بن موهوب السمعوني الجزائري ، هاجر والده الشيخ صالح من الجزائر الى دمشق في سنة ١٢٦٣ هـ وكان من بيت علم وشرف معروف في بلاده ، ولما جاء دمشق تولى قضاء المالكية وولد له ولد في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٦٨ هـ دعاه شيخ والده الشيخ المهدي (الطاهر) . قال والده في حاشية المجموع الفقهي للعلامة الامير المالكي « طهره الله من رجس دنياه ودينه وبارك في عمره ورزقه العلم والعمل به » واستجيب دعاء والده فنشأ ابنه طاهر على حب الفضائل والتناغي بالعلم والعمل .

دخل الشيخ طاهر المدرسة الجقماقية الاستعدادية فتخرج باستاذه الشيخ عبدالرحمن البوشناقي ، وكان مربياً شديد الشكيمة ، وتعلم العربية والفارسية والتركية ومبادئ العلوم ، ثم اتصل بعالم عصره الشيخ عبدالغني الميداني الغنيمي الفقيه الاصولي النظار . وكان واسع المادة في العلوم الاسلامية بعيد النظر واسع العقل وهو الذي حال بارشاده في حادثة سنة ١٨٦٠ م بدمشق دون تعدي فتيان المسلمين على جيرانهم المسيحيين في محلته فأنقذ بجميل وعظه وحسن تأثيره بضعة الوف من القتل في تلك

(١) محاضرة للسيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي ووزير معارف دولة سورية ألقاها في غرفة المجمع بتاريخ ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩٢٨ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المذاهب المشؤومة . وكان الشيخ الميداني على جانب عظيم من التقوى والورع الحقيقي يمثل صورة من صور السلف الصالح فطبع الشيخ طاهراً بطابعه وأنشأه على أصح المبادئ العلمية الدينية . وكانت دروسه دروساً صافية المشارب يرمي فيها الى الرجوع بالشريعة الى اصولها والأخذ من آدابها بلبابها ومحاربة الخرافات التي استمرأتها طبقات المتأخرين وانقاذ الدين من المبتدعين والوضاعين . واذ جمع الشيخ طاهر الى سلامة الفطرة وسلامة البيئة جودة النظر وبعد الهمة جاء منه بالدرس والبحث عالم مصلح وفيلسوف الهي أشبه الاوائل بهديه وتمثل بالأواخر في نظره ووفرة مادته .

ولم يغفل الاستاذ خلال سني الدراسة عن درس العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والتاريخية والأثرية ، اخذها عن علماء من الترك وغيرهم . فكان اذا رأى اعلم منه بفن اخذ عنه فنه وافاده فيما لا يحسنه من فنون العلم . ومن مثل لعينيه كيف كان محيطه منحطاً اوائل النصف الاخير من القرن الماضي ايام كان يتهم بالمروق كل من تعاطى علماً لا يعرفه المتفقهة يدرك ما عاناه الاستاذ لتلقف هذه العلوم المادية . ولم يبلغ الثلاثين من عمره حتى غدا يتقن العربية والفارسية والتركية و ينظم بالفارسية كالعربية . وكان نظمه بالعربية أرقى من شعر الفقهاء ودون شعر نبغاء الشعراء . وألف السجع لاول امره ثم تخلى عنه واصبح يكتب مترسلاً بلا كلفة ولا تعمل ، وتعلم الفرنسية والسريانية والعبرانية والحبشية والقبائلية البربرية لغة بلاده الاصلية . ومما ساعده على فتح صدره الرحب لجماع المعارف البشرية غرامه منذ نشأته بجمع الكتب وهو لما يزل في المدرسة الابتدائية . فقد اخذ يبتاع الدشوت والرسائل المخطوطة من دريهمات كان يرضخ بها له والده لخرجه . وكانت الكتب والرسائل تباع في الكلاسة شمالي الجامع الأموي على مقربة من ضريح صلاح الدين يوسف ابن ايوب . وكلما أحرز الشيخ شيئاً من الاوراق والاسفار طالعه بامعان وخبأه وحرص عليه فاستنار عقله وكثرت معلوماته واجتمعت له بطول الزمن خزانة مهمة من الاسفار قدرتها بستة آلاف مجلد فيها كثير من النوادر المخطوطة .

تولى التعليم لاول امره في المدرسة الظاهرية الابتدائية ولما أسست الجمعية الخيرية من علماء دمشق وأعيانها سنة ١٢٩٤ هـ دخل في عداد أعضائها وكان من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اكبر العوامل فيها ثم استحالت هذه الجمعية « ديوان معارف » ، فعين مفتشاً عاماً على المدارس الابتدائية التي أنشئت على عهد المصلح الكبير مدحت باشا والي سورية سنة ١٢٩٥ . وكان للشيخ الاثر العظيم في تأسيسها بمعاونة صديقه بهاء الدين بك امين سر الولاية وهو اديب تركي كان يحب نهضة العرب كما يحب العلم والادب . وفي هذه الحقبة ظهر نبوغ شيخنا وعبقريته في تأسيس المدارس واستخلاصها من غاصبيها وحمل الآباء على تعليم اولادهم ووضع البرامج وتأليف الكتب اللازمة للمدارس . كان يقوم بهذه الاعمال المهمة ولا يفتأ يزداد كل يوم علماً وتجربة وتفانياً في نهضة البلد وتحسين الملكات وصقل الأخلاق والعادات .

وأنشأ على ذاك العهد ايضاً بمعاونة بضعة من أصدقائه « دار الكتب الظاهرية » بدمشق وجمع فيها سنة ١٢٩٦ ما تفرق من المخطوطات العظيمة في عشر مدارس تحت قبة الملك الظاهر بيبرس البندقداري ولقي ممن استحلوا اكل الكتب والاوقاف مقاومة شديدة وهددوه بالقتل ان لم يرجع عن قصده فما زادوه الا مضاء وانكماشاً . ولا تزال هذه الدار أثراً من آثاره في الشام . وقد أنشأ مثلها في القدس باسم الشيخ راغب الخالدي وسماها (المكتبة الخالدية) وأضاف اليها بعد ذلك آل الخالدي خزائنهم الخاصة .

علمه وعمله

رأينا منهاج الدروس الواسع الذي أخذ الشيخ نفسه بدراسته منذ حداثته وانه ليندر في المتأخرين من علماء دور الانحطاط الفكري نبوغ رجل مثله وعى صدره من ضروب المعارف ما وعى وطبق مفاصل الشريعة مع علوم المدنية فقد كان متضلعاً من علوم الشريعة وتاريخ الملل والنحل منقطع القرين في تاريخ العرب والاسلام وتراجم رجاله ومناقشات علمائه ومناظراتهم وتآليفهم ومراميهم . ساعده على التبريز في هذا المضمار قوة حافظته التي لا تكاد تنسى ما يمر بها مهما طال العهد . وكان اماماً في علوم الأدب واللغة اذا سألته حل مسألة تظن الشيخ لا يعرف غير هذا العلم واذا استرشدته في الوقوف على مظان موضوع تريده أطلعك من ذلك في الحال على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما لا يتيسر لغيره الظفر به بعد الكشف عنه اياماً . وهكذا هو في علوم الشريعة ولا سيما التفسير والحديث والاصول . وكان يعرف السياسة وماينبغي لها وحالة الغرب واجتماعه والشرق وأممه وأمراضه معرفة لا تقل عن معارف عالم أخصائي من علماء الغرب لعهدنا . ولا يكاد جليسه يصدق اذا انكفأ الشيخ يتكلم في هذه الموضوعات خصوصاً اذا كان غريباً ان محدثه شيخ من شيوخ المسلمين يعيش في أمة لا تقيم وزناً لهذه المعارف .

اتسع صدر الشيخ لجماع علوم المدنية الحديثة الا الموسيقي والتمثيل فلم يكن له حظ فيهما وربما قاوم سراً المشتغلين بهما مخافة ان تكونا سلماً الى التبذل وخلع ثوب الحياء والوقار وكان لا يرى فيهما الا مدرجة اللهو والصبوة وهذا مما لم يدخله الشيخ في جريدة أعماله ولذلك لا يفتي بالتسامح مع القائمين عليهما مهما أوردوا له من الحجج على نفعها . وصعب ان يتخلى المرء عن جميع ما أورثه إياه اهله واساتذته ومحيطه . وصعب على من حلف ان يعيش عيش جد وتبتل ان يتساهل في الصغائر لئلا تؤدي الى الكبائر . اما الرسم والتصوير والنقش فكانت مما يتسامح فيه لكنه يغمزه عرضاً . وكثيراً مايقول ان أجيال الفرنجة في هذا العصر أفرطوا في الغرام بالتصوير والتعويل عليه في كل امر فأضعفوا بذلك قوة التفكير والتصوير .

وسياسة الشيخ في التعليم محصورة في تلقف المسلمين اصول دينهم والاحتفاظ بمقدساتهم وعاداتهم الطيبة وأخلاقهم القديمة القويمة وان يفتحوا قلوبهم لعامة علوم الأوائل والأواخر من فلسفة وطبيعي واجتماعي على اختلاف ضروبها و يقاوم المتعصبين على هذه العلوم المنكرين غناءها في المجتمع مقاومة حكيم عاقل وذلك بتكثير سواد الدارسين لها وارشادهم الى طرقها العملية المنتجة لا الوقوف بها عند حد الأنظار . فعمّ المسلمين في الشام درس علوم نرى اليوم الأخذ بحظ منها من البديهيات اللهم الا عند بعض الجامدين من المشايخ ممن جهلوها ومن جهل شيئاً عاداه .

وكانت للشيخ طرق مبتكرة في معنى بث الافكار التي تخالف معتقد الجمهور يبثها في العقول بدون جعجعة ولا مظاهرة و يقرب منالها من المستعدين لاخذ النفس بها وذلك بتلقينهم أمهات مسائلها اثناء الحديث على صورة لا ينفرون منها ولا يخطر لهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انها بالبدع المنكر . مثال ذلك انه اولع في صباه بكتب شيخ الاسلام ابن تيمية وكانت جمهرة الفقهاء في عصره تكفر ابن تيمية تعصباً او تقليداً لمشايخهم فلم ير الشيخ لتحبيبهم بابن تيمية الا نشر كتبه بينهم من حيث لا يدرون . فكان يستنسخ رسائله وكتبه و يرسلها مع من يبيعها في سوق الوراقين باثمان معتدلة لتسقط في ايدي بعضهم فيطالعونها وبذلك وصل الى غرضه من نشر آراء شيخ الاسلام التي هي لباب الشريعة .

هذا وليس الشيخ في مذهبه على الحقيقة حنبلياً ولا مالكياً ولا حنفياً بل هو مسلم يأخذ من اصل الشريعة باجتهاده الخاص و يحسن ظنه بائمة المذاهب المعروفة و يتجهم لمن يجرأ على النيل من احدهم . يعمل بما صح له من الدليل في الكتاب والسنة ولطالما اعطى الحق لعلماء الشيعة او الاباضية او المعتزلة في مسائل تفردوا بها وضيق فيها اهل السنة . اما الفلسفة او الحكمة القديمة والفلسفة الحديثة فكان يعطف عليها وعلى المشتغلين بها و ينحي باللائمة على المتأخرين الذين أوصدوا بابها فأظلمت العقول وضعف مستواها .

كان الشيخ ينكر على الظالمين سيرتهم و يقبح الظلم وان نال عدوه و ينصف الناس من نفسه بعض الشيء وكان الحكام معه في بلية يعرفون انه ينزع الى القضاء على سلطتهم الغاشمة ولا يستطيعون ان يقلبوا له ظهر المجن و يظهروا العداء له . وكذلك كان المشايخ معه يبغضون أفكاره ولا يجرأون على مقاومته بسلاحه سلاح العلم والبرهان فكان كثيراً ما يقول ما لنا ولأناس ليس لهم من السلطان علينا غير سلاطة السنهم وكلمات ينفسون عنهم بها وهي لا تخرج الى أبعد من سقوف بيوتهم وحجرهم . وحدث لبعض أغمارهم انا استعانوا غير مرة بالسلطة الزمنية على توقيف تيار أفكاره وأفكار أنصاره فكان الشيخ يصدهم بما له من التأثير في اهل الحل والعقد ممن كانوا يتمثل لهم عقل الرجل وضعف المبغضين له وكان يحسن مخاطبتهم بلسانهم والقائمون عليه لا يحسنون محاورتهم حتى ولا بلغتهم الاصلية . وسلاحهم دسائس يحوكونها وتعصبات ينفثونها . ولم يزل جهال الناس كما قال ابن المقفع يحسدون علماءهم وجبناؤهم شجعانهم ولئامهم كرماءهم وفجارهم ابرارهم وشرارهم خيارهم . من اجل هذا كان الاستاذ يتفنن في بث أفكاره بين الخاصة والعامة على صور شتى و يتفانى في نشر العلم والتهذيب والأخذ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من القديم والحديث . وكم من عامي اصبح بتعاليمه وتلقينه بالعمل مسائل بسيطة من العلم معدوداً من المتعلمين في جلسات قليلة جلسها معه وسمع مذاكراته ومن هذه الطبقة أناس مافتئ على تنشيطهم حتى الفوا وطبعوا ولم يكونوا قبله في العير ولا في النفير . وكم من جريدة او مجلة او كتاب او رسالة نشرت في مصر والشام بارشاده وكان له أسلوب جرى عليه خصوصاً في تفتيش المدارس وهو ان يعلم المعلم ولا يشعره بانه يعلمه بل يوهمه انه يذاكره في مسائل التربية والتعليم او انه يحاول ان يتعلم هو منه .

وكم من اديب او عالم أرشده الى السبيل السوي في أدبه وعلمه وعلّمه المظان وأساليب المراجعة . وكثير عدد من اشتغلوا بالآداب او تعلموا التعليم الثانوي او العالي في القطر الشامي ان لم يكونوا استفادوا منه مباشرةً فبالواسطة . وتلاميذه ومريدوه يعدون بالعشرات من المسلمين واكثرهم اليوم يشغلون مقامات سامية في دور العلم والحكم وفي التجارة والزراعة . ولم يحد المترجم له عن الخطة التي اختطها لنفسه منذ نعومة أظفاره ودعا الناس الى انتهاجها حتى آخر ايامه . وخطته الاخلاص والعمل على النهوض بالامة من طريق العلم وبث الملكات الصحيحة في اهل الاسلام . وثورته ثورة فكرية لا مادية و يقول ان هذا الطريق يطول امرها ولكن يؤمن فيها العثار والسلامة محققة ثابتة . بحق ما قيل في الشيخ انه معلمة (انسيكلوبيديا) سيارة وكيف لا يكون كذلك من آتاه خالقه حافظة قوية وذهناً وقاداً وعقلاً يستعمله على الدوام . فقد قرأ جميع ما طالت يده اليه من الكتب العربية التي طبعت في الشرق والغرب . اما المخطوطات التي طالعها وخصها في كنانيشه وجزازاته فتعد بالالوف . وقل ان يدانيه احد في علم الكتب ووصفها ومؤلفيها وحوادثها واماكن وجودها . ولطالما رحل من بلد الى بلد بعيد ليطلع على مخطوط حفظ في بعض الخزائن الخاصة . و بالنظر لاحاطته بالمظان وتدوينه في الحال كل ما يقع اسحّ انه عليه من الفوائد ، كان يسهل عليه التأليف فيما ترتاح اليه نفسه من الموضوعات . وقد يؤلف الكتاب في بضعة اسابيع على شرط ان يوقن انه سيطبع .

فهو واسع الرواية واسع الدراية او كما قال صديقه العلامة احمد زكي باشا في برقية أبرقها الى الشام بالتعزية به « كنت ارى فيه الاثر الباقي والمثال الحي والصورة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الاسلامية وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص واستثارة خباياها وابراز مفاخرها هذا الى التفاني في توسيع نطاقها بقبول ما تجدد عند الامم التي تلقت تراث العرب باليمين والدعوة الى الاقبال عليه مضموماً الى آثار الابناء ومآثر الاجداد . وهكذا قضى الشيخ عمراً اولاً وثانياً وثالثاً في خدمة العلم والدعوة اليه بالقلم واللسان وبالقدوة الحسنة حتى تم له شيء كثير مما أراد بين الأنداد والتلاميذ والمحبين والمريدين فهم منـاط الأمل وفيهم خير خلف لذلك يغتبط قاسيون بضم رفاته والحنو عليها » .

اخلاقه وعاداته

قلنا ان سيرة الشيخ طاهر كانت نمطاً واحداً طول حياته هكذا كان متعلماً ومعلماً وعالماً يحب العمل ويدعو اليه قبل النظر جد في حركته لا يبالي بالعوائق امامه مهما عظمت وكلما حاول اعداؤه ان يقفوا دون انبعاث دعوته يزداد قوة وعرامة شأن كل الدعوات كلما حاربتها زدتها انتشاراً ونبهت الناس اليها . ألغت الحكومة وظيفة التفتيش بالمدارس علها تخفف من شدته في بث أفكاره بين الاساتيذ والتلاميذ فزاد نشاط الشيخ . وكان مدرساً في المدرسة الأعدادية بدمشق وهو من جملة مؤسسيها فاستقال ثم عرضت عليه وظائف كبرى في غير السلك العلمي فأبى لانه كان يعرف انه لا بد له من مشايعة الظلمة والجهال على اعمالهم . وجعل جل اعتماده في عيشه آخر ايامه على الكتب التي اقتناها طول حياته باثمان بخسة واخذ يبيع منها بالتدريج ولا سيما اذا تأكد انها تحفظ في معاهد عامة كدار الكتب المصرية والخزائنين التيمورية والزكية في القاهرة فان معظم نفائس خزائنه نقلت اليها وتمزز الشيخ أثمانها نحو اربع عشرة سنة . وكان اشتراها في صباه باثمان بخسة فارتفعت اسعارها عشرة اضعاف او اكثر .

كان الشيخ على ضيق ذات يده أحياناً يتصدق على الفقراء في السر وربما كرّت يده عن لباسه وطعامه وأطعم جائعاً وعال معوزاً . يصلي الصلوات لاوقاتها ويقيم شعائر الاسلام حتى في غير بلاده . فقد زار مرة احد معارض باريز فكان اذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ادركته الصلاة صلى في الحديقة العامة لا يبالي بانتقاد الناس هناك ولا استغرابهم حركاته وسكناته . وحج مرة وطبق مناسك الحج على مايفعل العلماء العاملون . وكان مفطوراً على الرحمة يأرق لجاره او صاحبه اذا علم انه أصيب ببائقة في ماله او اهله او جاهه خصوصاً اذا كان الرجل ممن ترضيه سيرته في الجملة .

كان الشيخ يستنكف ان يأخذ شيئاً من احد بلا مقابل مهما كان الواهب . فقد عرض عليه صديقه الاستاذ احمد زكي باشا ان يوقع على طلب وهو يتعهد له براتب جيد من الاوقاف المصرية على عهد الخديوي عباس الثاني فتنصل واعتذر ولما اشتد صديقه في تقاضيه ذلك انتهره حتى لقد قال الاستاذ زكي باشا لو كنت اعتقد ان رجلاً يعيش من تحت السجادة لاعتقدت ذلك في الشيخ طاهر لانه يقيم في بلد كمصر يشكو فيه الاغنياء من الغلاء ولا يحب ان يأخذ من احد شيئاً يستعين به .

وكأنه يشير بحركته الى ما قاله القاضي علي بن عبد العزيز في عزة نفس العالم :

يقولون لي فيك انقباض وانما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل احجما
ارى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن اكرمته عزة النفس اكرما
ولم افض حق العلم ان كان كلما ... بدا طمع صيرته لي سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني ... ولا كل من لاقيت ارضاه منعما
اذا قيل هذا منهل قلت قد ارى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما
انهنهها عن بعض ما لا يشينها ... مخافة أقوال العدا فيم اولما ؟
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي ... لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
أأشقى به غرساً واجنيه ذلة ... اذاً فاتباع الجهل قد كان احزما
ولو ان اهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن اهانوه فهان ودنسوا ... محياه بالاطماع حتى تجهما

لا اكون الى المبالغة اذا قلت ان عزة النفس وهو الخلق الذي ندر في علماء المسلمين لعهدنا كان مما تفرد به ففيه اباء الملوك وزهد الزهاد والعباد . لم يظاهر ظالماً لغنم يصيبه ولا صحب غنياً للانتفاع بغناه . وكان يؤثر الخمول وعدم الظهور ولا تهمه الشهرة استفاضت ام لم تستفض لانه يهزأ في باطنه بمظاهر الابهة والرفعة و يزهد في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اعتبارات كثيرة ينفانى الناس في تحصيلها يزهد حتى في نسبته الى الشرف ولم يذكر ذلك الا مرة واحدة ذكّره فيه احد صلحاء الجزائر بين امامي وسألته بعد ذلك عن نسبة بيتهم الى الشرف فقال « هكذا يقولون » ولا عجب فشرف العلم اشرف نسبة .

هاجر الشيخ من دمشق لما كثر ارهاق العلماء في العصر الحميدي فنزل القاهرة من سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧) الى سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠) وظل فيها طول هذه المدة على تقشفه والحرص على عاداته . ولما نشر القانون الاساسي في المملكة العثمانية (١٩٠٨) رأى الشيخ بنظره الثاقب ان عهد الحرية الحقيقية بعيد وكان لا يغتر بقوانين الترك ولا بثرثرة السياسيين فانزوى في مصر حتى استحكم منه مرض (الربو) وقفل راجعاً الى مسقط رأسه قبيل وفاته باشهر قليلة فعين مديراً لدار الكتب التي كان أنشأها في صباه وعضواً في المجمع العلمي العربي وناداه ربه الى جواره يوم ١٤ ربيع الثاني سنة ١٣٣٨ (٥ كانون الثاني سنة ١٩٢٠) فدفن حسب وصيته في سفح قاسيون جبل دمشق . وقبيل وفاته برّح به الالم فاقترح على الطبيب ان يعطيه دواء يميته حالاً قائلاً ان في الشرع ما يبيح ذلك وهذا من اغرب ماسمع من عاقل . اما الطبيب فركن الى الفرار وحلف ان لا يعود لتمريض الشيخ .

كان الشيخ فيلسوفاً بكل ما في الفلسفة من معنى شريف لا تلتوي أخلاقه ولا ينزل بحال عن عاداته متشدداً في دينه زاهداً في دنياه لم تبهره زخارف الحياة ولم يتزوج حتى لا يشغل ذهنه بزوج واولاد وليكون ابداً مطلق العنان يسيح في الارض متى أراد او يقبع في كسر داره وسط كتبه ودفاتره . ولئن خلا من همّ نفسه فما خلا ساعة من الاهتمام بامر المسلمين وتحبيب العلم والعمل اليهم .

وعقد له صلات مستديمة مع علماء عصره على اختلاف أديانهم وأجناسهم . صحب صديقه الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده كما صحب صديقه العالم المجري (غولدصهير) اليهودي . وكثيراً ما كانت صلاته بعلماء المشرقيات باعثة على تخفيف حملاتهم على الاسلام ولو قليلا . وهذا جل ما كان يهتم له ثم يهمه من امر المستعربين من المستشرقين توفرهم على خدمة آدابنا بنشرهم كتبنا النفيسة وكان يعاونهم فيما هم بسبيله اذا استطلعوه طلع رأيه ومتى استفتوه أفتاهم بما يتعذر وقوفهم عليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن عادة الشيخ ان يصحب الفرق المختلفة مهما كان لون طريقتهم ونحلتهم حتى الملاحدة وارباب الطرق . رأي ذات مرة جماعة يتألفون على طريقة لم يحبونها واذكار مأثورة يقيمونها وشهد في بعض أفرادهم استعداداً للعلم فما زال بشيخهم وكان من أصحابه وتلاميذه حتى حمل الجماعة على ان يشغلوا الوقت في مطالعة كتاب من كتب القوم في التصوف وكان هذا الكتاب في الادب العالي والأخلاق الفاضلة . ورأيت الشيخ يحتمل كثيراً من تجهم بعض اولئك المتألفين فيدخل في مجلسهم متظاهراً بانه طالب استفادة حريص على درس أستاذهم وهو يحمل اليهم النسخ المخطوطة من الكتاب لمعارضتها بالمطبوع يحاول ان يعلم بعضهم صورة المراجعة في كتب اللغة حتى تسلم العبارة من الخطإ و يخدم الكتاب الخدمة اللائقة وبذلك تيسر له ان ينقل بعض ارباب الاستعداد منهم من كتب التصوف الى كتب العلم والأدب وسمعت بعضهم يتبرمون بقراءة تفسير ابن جرير الطبري وتبسطه في شرح الكتاب العزيز فجاء من هذه الزمرة أدباء نافعون بعد ان كانت نفوسهم مشبعة بالكشف والخيالات والمنامات . وأدخل النور على كثير من أذكياء العلماء من أصحابه وكان منهم الذين ذرفوا على الستين فما استطاعوا ان يؤثروا الاثر المطلوب في مريديهم ومنهم من ساعدهم الطالع ان كانوا في سن الشباب فعالجوا التأليف والوعظ والتعليم فانتفع بهم الناس كل النفع ومنهم من لم يتمرنوا على الكتابة والالقاء فبقيت لهم افكارهم في دائرة القوة لم يتعد اثرها المحتفين بهم من الأصحاب والمريدين .

ولقد كانت له صداقة اكيدة بالعالم المطران يوسف داود السرياني يتسامران ويتحدثان ويتهامسان ويتنسافسان . وما أدري ان كان المطران أثر في الشيخ او أثر الشيخ في المطران . سمعت الشيخ يثني الثناء المستطاب على صديقه المطران وقد طالت به صحبته وعشرته . وهكذا كان له اتصال بالارمن واليهود واليسوعيين الكاثوليك والاميركان البروتستانت . وكان يغضي عن كثير من النقد على رجال الدين من غير المسلمين ويقول هم أقرب الناس الينا يعتقدون بالله واليوم الآخر وخلود النفس . وكانت جميع الطوائف تستلطفه وتحب عشرته على ما بينها وبينه من التخالف الظاهر في الزي والعادة والخلق والمذهب و يطلعونه من سرائرهم على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما لا يبوحون به لأقرب الناس اليهم . وسمعته غير مرة يقول « الحمد لله لقد سالمنا كل الفرق » .

صحب بعض الزنادقة وما زال يصبر على ما ينبوعنه سمعه من تصريحهم وتعريضهم وما فتئ يلقنهم أفكاره بالتؤدة مدة حتى عاد بهم الى حظيرة الدين وهم لم يشعروا فيما أحسب بما دخل على عقولهم من التبدل وصحب كثيراً من غلاة الشيعة والطوائف الباطنية فما برح يلطف لهم حتى أضعف من غلوائهم وأيدلهم بعد الجفوة أنساً وغيّر من انقباضهم وانقباض الناس عنهم ليعيشوا في هناء وسط المجتمع الانساني الاكبر .

وكان يتفنن في بث الأفكار الصحيحة واخراج قومه من الأمية المميتة و يحمل خاصته ومن يصل صوته اليهم على تعليم اولادهم الممكن من ضروب العلم الذي يتناسب مع حالتهم الاجتماعية . وقال لي مراراً اذا أردت إدخال الاصلاح الى بيوت الاعيان وفيهم الجاه والمال فاجهد لان يتعلم ولو فرد واحد من كل أسرة تقلب به كيانها . وكثيراً ما قال لنخرجن من بيوت الاغنياء اولاداً يحاربونهم بسلاح التربية الصحيحة وقد وفق الى ذلك بعض الشيء . وكان يقول لو طلب مني اليهود ان أعلمهم ماتاً خرت ساعة عن إجابة طلبهم لان في تعليمهم تقريباً لهم منا مهما كانت المباينة والفوارق بيننا وبينهم .

ما رأيت الشيخ يبغض انساناً بغضه لشقيقين دمشقيين جعلا شعار العلم على رأسيهما وكان اذا ذكر احدهما او كلاهما في مجلسه يقول « دعونا » وتنقبض نفسه انقباضاً دونه كل انقباض ولو علمت ان بغضه لهما — وكانا بغيضين للناس — كان ناشئاً من كونهما اعطيا عهداً على انفسهما ان يصدا الناس عن طلب العلم لبطل عجبك . واكد الاستاذ ان الاخوين قد وفقا بدعايتهما الضارة الى ان قطعا عن الدرس نحو اربعين طالباً كان يرجى ان يكون منهم متعلمون بل علماء عاملون وكان من عادة بعض ادعياء العلم من الشيوخ ان يرغبوا الناس عن الدرس ليخلو لهم الجو ويستمتعوا وحدهم بالمناصب الدينية والاوقاف والمدارس والجوامع لا ينازعهم احد في شؤونهم ما خلا أبناء بيوت محدودة معروفة ممن هم على شاكلتهم في غش الامة والاستئثار بمرافقها . فكان شأن هؤلاء في الاستئثار الممقوت شأن كهنة قدماء المصريين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا يسمحون لغير فئة خاصة بالتعلم او شأن اصحاب الطبقات من الهنود او اللاو بين عند اليهود لا يدخل اهل طبقة في طبقة غيرها مهما تبدل من حالتها .

من اجل هذا كان من رأي الشيخ ان يتعلم كل طالب علم (العلم الاسلامي) صناعة او تجارة او نحو ذلك من أسباب المعاش مما يغنيه عن الناس وعن تكفف العظماء لتعزف نفوسهم عن التناول من الاوقاف والتمرغ في حمأة القضاء والافتاء و ينشأوا على استقلال النفس لان هذا العلم يطلب لذاته وفائدته في الدارين لا للتكسب به عند السلاطين والحكومات . وفي سيرة بعض علمائنا الاقدمين ممن كانوا يحترفون ويتجرون عبرة لاهل هذا الشأن واي عبرة .

ولطالما تفرس الشيخ في انسان الشر واعرض عنه وحذر أصحابه من الدنو منه فينالهم من نقد غير العارفين ما ينالهم و يقولون ان الشيخ صاحب أطوار وغرائب والشيخ ساكت يقول : « هم أحرار ونحن لا نكمّ أفواه الناس عن التحدث بما يروقهم » ولا تلبث الايام بعد حين ان تكشف نفس ذاك الشرير على صورة مستغربة وكثيراً ما كنت أسأله عن بعض الاشخاص من حيث علمهم او أخلاقهم فيجيب (الامر مجهول) فافهم بالتعريض ان في معلوماتهم او سلوكهم نظراً فيظهرون بعد لاي بمظهر الجهل او الخيانة . وقد خدعوا السذّج من اصحاب الصدور السليمة ومن قلت تجاربهم في المجتمع اعواماً غير قليلة . ومن فراسته الغريبة يوم حدث الاعتداء على ولي عهد النمسا في مدينة سراجيفو سنة ١٩١٤ ان حرباً اوربية طاحنة ستنشب لامحالة فأبعد في تصوره خطورة الموقف الى ما لا يتعداه غير اعاظم المفكرين العارفين بنتائج الحوادث . كان يصدع بالحق ولا يماري اذا دخل مجلساً ورأى فيه بعض الظالمين او المخرفين غلب عليه الجلال فلا ينطق بكلمة ، واذا رأى من احد الحاضرين تمويهاً في امر وخروجاً عن الصدد جبهه واحنق فيخرج عن مألوف الناس في الملاينة والملاطفة وهذا سر من أسرار ازورار بعض الناس منه . واتفق ان احد أترابه ارتقى في الدولة العثمانية حتى أصبح الحاكم المتحكم في العهد الحميدي فقاطعه الشيخ مقاطعة بلا سبب ظاهر فتوسط صاحبه احد أقاربه ليعود الشيخ الى مراسلته ووعد الشيخ ومناه فأغضى الشيخ عن إجابته ثم الحّ الوسيط بعد مدة ليعرف الداعي الى إعراض الشيخ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن صاحبه فقال : « اكتبوا له اننا لا نتعرف اليه ما دام لا يعرف أمته ومتى فكر في إسعادها وتخفيف البلاء عنها عدنا إخوانه وأخدانه » . وحدث ان صديقه الاستاذ احمد زكي باشا نال بواسطة المرحوم احمد حشمت باشا وزير معارف مصر اعتماداً بعشرة آلاف جنيه لطبع مجموعة من الكتب العربية القديمة النادرة تبلغ فيما أذكر سبعة وعشرين كتاباً ومنها ما يدخل في بضعة مجلدات فتباطأ زكي باشا في الطبع ومضت السنة فقيد المبلغ في نظارة المعارف على حساب السنة المقبلة ولم يخرج الباشا شيئاً وهكذا حتى ألغي الاعتماد باستقالة حشمت باشا فغضب الشيخ غضبة مضرية من عمل زكي باشا وصارحه بقوله : « لقد أسأت الى الامة العربية بابطائك في إخراج الكتب للناس واذا ادعيت انك كنت تقصد نشرها سالمة من الخطإ مشفوعة كلها باختلاف النسخ والتعاليق فالتأنق لا حد له ويكفي ان ينتفع الناس بالموجود » . وظل الشيخ أشهراً لا يكلم صديقه الزكي الا متكلفاً كأنه عبث به وحمل الضرر الى مصلحته مباشرةً . واي مصلحة أعلق بقلبه من نشر آثار السلف واذ كان الشيخ عصبي المزاج يحب اتمام كل عمل لساعته وكان يستشيط غضباً من رجل قال له ان لك عندي كتاباً ولكني انسيته في داري اوحانوتي اومدرستي وكثيراً ما كان يحمل من يشغله بكتاب جاءه على ان يفتح محله مهما كان بعيداً او مهما كان الحديث في ساعة متأخرة من الليل . ويقصد الشيخ في ذلك ان يعلم الناس العناية بمصالح غيرهم ايضاً . وكان يقول في مثل هذه الاحوال واعمل في الكتاب امراً مستعجلاً يستدعي ان يجاب عليه في الحال .

غريب عاداته

كان سمت الشيخ وهندامه سمت العوام وهندامهم وعمامته من الأغباني في جبة بسيطة وقفطان قطن وزنار مزدوج يخبأ فيه بعض الدراهم وألبسته من صنع الوطن الا النظارتين والطربوش و يختار من القمصان والسراويل ما خفّ ثمنه ليطرحه اذا اتسخ ولا يشغل ذهنه بغسله وكثيراً ما يلبس قميصين وسروالين وقفطانين وصدرتين وجبتين ليكون على اتم الاستعداد لما يطرأ على احد الزوجين فيطرحه حالاً و يستعيض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عنه باخيه دون انتظار شيء آخر . ويقل استعماله للمناديل المتعارفة المعمولة من القطن فيعمد الى اتخاذ مناديل من الورق الغليظ يضم بعضه الى بعض و يخيطه فيكون دفتراً يلقي به الشيخ بعد ان يتسخ كله . وكان يطهر جسمه ولا ينظف ثيابه كثيراً . أصيب بهذه الخلة خصوصاً بعد ان فقد والدته في صباه ولم يبق له من رحمه امرأة تتعهده ابداً بنظافة ثيابه والعناية بظواهره وانى له هو ان يسد مسد أمه في ذلك وفكره مشغول بمطالب عالية أخرى قد لا يتسع لمثل هذه الجزئيات في رأيه .

ورأيت في بعض تعليقاته في ترجمة عبد الله بن الخشاب وكأنه ينقله لها ترجم نفسه فقال بلسان الحال وهذا رجل مثلي كان الى الخمول قال : « كان وسخ الثياب ما تأهل ولا تسرّى له معرفة بالحديث والمنطق والفلسفة والهندسة بل بكل فن ، وكان يترك عمامته اشهراً ولا يغسلها ويلبسها كيف اتفق فاذا قيل له في ذلك يقول ما استوت العمة على رأس عاقل قط » . وشيخنا رحمه الله كان من هذا الطراز . والعبقرية على ما يظهر تكمل من صاحبها ناحية واحدة وتنقص منه من الناحية الاخرى بقدرها . أراد الشيخ احد أصحابه في القاهرة خلال الحرب العامة على ان يغير جبته لانها بليت بعض أطرافها فسكت الشيخ عن إجابته . فلما ألحّ عليه مرتين وثلاثاً أجابه « يا فلان تريدني على اقتناء جبة جديدة واهل الشام اليوم يموتون من الجوع » .

وأضافه احد اصدقائه في بيروت واخذ ذات يوم ثيابه بدون استئذانه ليغسلها وعوضه عنها ثياباً جديدة فخنق الشيخ ومازال بمضيفه حتى أعاد اليه ثيابه الوسخة وذلك لئلا يشغل فكره في ثيابه ريثما تغسل وتنشف ولئلا يلبس ثياباً غير ثيابه . وغضب مرة على احد اصحابه ومساكنيه في القاهرة لانه اقترض غيابه فنزع من غرفة الشيخ جميع الكتب والفراش المملوء بالبق وكنس الغرفة ونفض الغبار عن الكتب والأواني وغسلها ووضع سمّاً لقتل البق في السرير حتى لا يصل الى الشيخ فيقرصه وأعاد كل شيء الى مكانه فلما رأى الشيخ ذلك عرف ما دبر له ولم تطب نفسه بهذه التعزيلة وانحى على صاحبه باللوم والتقريع . ورأيته مراراً وقد نثأ مسمار اومسامير من حذائه فكان يخصف من ورق الشجر يجعله في الحذاء ليتقي ضغط المسمار على رجليه ولا تحدثه نفسه ان يذهب الى الحذّاء يصلح له حذاءه واذا قلت له في ذلك أجابك ان الوقت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا يساعدني . وكان مداسه متسعاً في الشتاء يجرف من الارض طيناً كثيراً يعلق بجبته فيصبح وجهها شكلاً وقفاها شكلاً آخر . ولطالما تبرم بزيارته ايام المطر بعض ربات البيوت مخافة ان يعلق طين جبته في المقعد الذي يقعد عليه . وكان اذا اشتد الحر استثقل الجوربين فنزعهما من رجليه وعوضهما اوراقاً هشة ملونة جعلها حفافي نعله لتمتص العرق بزعمه . وانت لا تملك نفسك من الضحك اذا رأيت رجليه وتستغرب من عظيم كهذا يهزأ بعادات مجتمعه الى هذا الحد ولا يبالي النقد ولا الملام ولطالما قال انا شاذ ولا أحب ان يقتدي بي احد .

ومن عادة الشيخ ان يحمل في جيوبه وعبابه بعض الدفاتر والرسائل بل أقلاماً ودواةً ومقراضاً وسكيناً وابراً وخيوطاً وشيئاً مما يحمل من النواشف والخبز والجبن والزبدة والتين والزبيب وفي بعضها مادة دهنية دسمة يخشى ان تسيخ كالشواء ومادخله سمن او زيت من المآكل يضع ذلك في مقوى او ورق غليظ ويستعمله عندما يريد ويطعم منه اصحابه ان احبوا . اما الدخان والسكر والمربى فيحمل منه مؤونة ايام احياناً وقد يطبخ القهوة في داره كمية وافرة ويحمل منها ما يكفيه اسبوعاً حتى لا يضيع وقته بطبخها كلما اراد تناول فنجان منها وهكذا يشربها باردة بائتة اياماً لئلا يشتغل بها كل ساعة عن مطالعته . وقال لي مرة انه ابتاع ارطالاً من البرتقال وضعها في داره ومن الغد بدا له ان يسافر وتذكر وهو على اذرع قليلة من البيت انه يجب ان يستصحب في حقيبته شيئاً من البرتقال وتذكر ما اشتراه منه بالامس فآثر ان يبتاع برتقالاً من الطريق لئلا يضيع وقته بالرجوع الى الدار بعد ازماعه الخروج منها ولم يعد الشيخ الى داره الا بعد ستة اشهر وفرح ان رأى برتقالاته تضمر وتنشف .

وكان مغرماً بالتدخين منعه الطبيب منه واراده على إبطاله فتعذر عليه ذلك فقال الطبيب ان كان لا بد من التدخين فلف بنفسك لفائفك حتى يمضي جانب من الوقت في اللف وكان الشيخ لا يحسن صنع لفائفه فتجيء واحدة دقيقة واخرى غليظة وثالثة متوسطة وعندئذ يبدأ الشيخ بتجاربه ليضع اللفافة في البز (الفم) الذي يلائمها وكان في جيب الشيخ بضعة من هذه الابزاز بتخيرها من القصب او غيره من انواع الخشب وهكذا كان يتلهى عن الإكثار من التدخين ولو بضع دقائق واذا قلت له

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بابطال التدخين ينهرك و يعرض عن حديثك هـذا وهو صاحب ارادة قدت من حديد او صخر .

ومن عادة الشيخ خلال الاربعين السنة الاخيرة من حياته ان لا ينام الا اذا صلى الصبح يساهر بعض اصحابه هزيعاً من الليل ثم يغشى حجرته يطالع و يؤلف وكان لا يراعي اوقات بعض احبابه فيوقظهم احياناً بعد الهزيع الثاني من منامهم ليسمر عندهم اما من كان لهم مواعيد و يعرفون التوقيت لساعات الليل والنهار فكان يصونهم عن غشيان منازلهم موهناً ولا يطرق ابوابهم بعد الاوقات المعينة للسمر والسهر .

كان يحب السباحة والعوم وله مسبح خاص في بيروت وآخر في صيدا ومسابح في بعض أنهار دمشق وربما لبس سراويله مبللة بعد الخروج من سباحته و يهوى السير على الاقدام للتريض ولطالما قطع عشرات الأميال بين المدن والقرى والجبال والاودية سائراً على قدميه . وقد يراه في الطريق بعض اصحابه او من لا يعرفه و يدعونه الى الركوب في مركباتهم او على متون دوابهم فيأبى لانه لا يحب ان ينقض امراً ابرمه ونفسه تتوق الى السير ماشياً فاي معنى للركوب . ومن اغرب اطواره انه اذا استعدت نفسه للقيلولة قال وهو وسط اخوانه يتذاركون و يتدارسون . يقيل وهو قاعد و يضع على وجهه منديلاً وربما اتم اغفاءته عند انجاز الدرس والمذاكرة ولم يكن يحب ان يطول الدرس اكثر من نصف ساعة لانه يتبرم بالجد في هذه المجالس وهو يقضي الساعات في مطالعاته الخاصة .

كان الشيخ لا يعرف الهجر ولا يشتم شتماً ينبو عن حد الادب مع حدة فيه ظاهرة وألم من اكثر احوال المجتمع وكان اذا صفا ذهنه تفصح عبارته في محاضرته والا فيعتريها شيء من اللهجة المغربية ممزوجة بالعامية الدمشقية وله تعبيرات خاصة وأساليب في مصطلحاته ونبراته لطيفة تحلو من فمه . يمزج أحماضاً من الجد وما احصي عليه ان نطق يوماً بفحش او هراء او استعمل ما ينافي الأدب والمروءة وكان يميل الى بعض من فيهم البلاهة ممزوجة بالذكاء وتصدر عنهم غرائب الافكار والتصورات وربما قصدهم كل سنة من بلد الى بلد ليقطع بينهم اياماً يخرج فيها من الجد و يدخل معهم في حديث قد يروقه للتسلية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حدثني احد لداته قال كنا في دمر احدى قرى دمشق نقضي فيها يوماً للنزهة وكنا في نحو الثلاثين من العمر فاعتزل الشيخ طاهر في ناحية من الحديقة يطالع ويكتب في ظل شجرة وكنا حراصاً على ان يكون معنا طول النهار وكانت في البستان فتاة اسرائيلية جميلة الطلعة فاقترحنا عليها ان تذهب الى الشيخ المستظل بالشجرة وتأتينا به ونحن نكرمها بالمال فصدعت بالامر ولما رفع رأسه من كتابه أخرج لها في الحال قطعة من القمرالدين (معجون المشمش) وقال لها « ايه بارك الله أنا كلين قمرالدين يا قمر الدنيا » وصرف الفتاة بهذا التقريظ وهذا كل ما اثر عن الشيخ في باب التصابي.

وسأله احد الطلبة عن حكم التقبيل وما اليه فأجابه هذا موضوع لا أعرفه سل غيري. وتكلم احد اصحابه بكلام بعيد عن الحشمة في حضرته فأشاح بوجهه وتصامّ كانه ما سمع ولا دهش لهذا الغريب من الحديث على حين كان مغرماً بالغرائب ولكن لا من هذا البحر والقافية.

سأله احد الفقهاء ممن ألفوا كتباً دينية حشوها بما لا يقره الشرع الصحيح ولا العقل الصريح « كيف تجد كتبي يا شيخ طاهر » فأجابه في الحال متخلصاً أجمل تخلص « اشتغلوا ونحن نشتغل لنرى لمن تكون النتيجة » وكان يكره المتشدقين من المؤلفين والكاتبين خصوصاً في الدين والسياسة بل يكره كل من يقول بغير علم و يحاسب الذين يرمون الكلام على عواهنه حساباً غير يسير و يسميهم الحشوية كما يكره الجلجلوتيين والقبوريين والجامدين والمماحكين. وسمعته يقول ان فلاناً برده على الماديين وهو لا يحسن العلوم المادية فتح علينا ابواباً يصعب سدها وفلاناً بمقالاته السياسية المطولة يفتح بقلمه كل حين مشاكل صعبة الحل.

وكان ينهر من يوردون احاديث تفت في عضد السامعين وتلقي في قلوبهم الرعب والوهم لان من مذهبه تقوية القلوب وإزالة غشاء الاوهام من الأحلام وان يصمد المرء لمكافحة الحوادث ولا يحب الاستقراء والاستنتاج اذا كانا في غير محلهما حتى لا يؤدي التزيد والتفلسف الى تزييف الوقائع وإلباس الحقائق غير صورها ولذلك كان يستلطف من الانكليز السكسونيين ايجازهم في احاديثهم وكتبهم ويوحشه من اللاتينيين تبسطهم في أقوالهم ومكتوباتهم.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان يرفق بالضعفاء و يرفع من قدر الصعاليك و يحمل على العظماء ويترفع عن ملابستهم و كثيراً ما كان يحدث العامة برفق ونؤدة ويخاطبهم خطاب اخوانهم لهم . ولطالما قال ان من الحكمة ان لا تجعلوا بينكم وبين العامة حجاباً كثيفاً اذا أحببتم هدايتهم والانتفاع بهم في المجتمع وعليكم ان توهموهم انليس بينكم وبينهم من الدرجات الا قليل يوشكون هم اذا اشتغلوا قليلاً ان يساموكم او يفوقوكم فهو بهذا كالطبيب الحاذق يعطي المريض الجرعة التي تناسبه و يتدرج به في المقويات درجة درجة وهكذا كان مع كل طالب ومستفيد . تحقق لدى الشيخ ان ابن اخيه وكان من نوابغ الشبان ابتلي بأخرة بالشراب يتعاطاه فقطع مكاتبته مع شدة حبه له وظل لا يكلمه ولا يبحث عنه مدة اثنتي عشرة سنة وهو يكتم السبب في إعراضه عن نجل شقيقه حتى أشار مرة لبعض خاصته بما يرتكبه المغضوب عليه من اخذ المسكر وعدّ عليه في جملة هناته انه أتعب نفسه في المدرسة زيادة عن المطلوب فضعف بصره حتى ينال رتبة علية وكان عليه لو سمع نصائح عمه ان لا يرهق نفسه و يكتفي من المنافسة مع اقرانه بما توصله اليه الطبيعة بدون اعنات ولا انهاك بدن وهذا من قوة نفسه وصدق حدسه .

كان يكره الاستعمار كرهاً شديداً و يحب المدنية و يحث على تعلم لغات الغرب و يكره السياسة العثمانية و يقول ان استيلاء الترك على بلاد العرب أضر بها وأزال مدنيتها وغيّر أخلاقها ولم يكن ينكر على الاتراك أدبهم في عشرتهم ونظامهم في بيوتهم وحسن معاملتهم لكبرائهم . وكان يحب من اهل المدنيات الحديثة كل أمة ترفق بالمسلمين في الجملة و يحب من الناس من يصرف في خدمة المسائل العامة شيئاً من وقته وماله . وكان يقول وهو على فراش الموت عدوا رجالكم واغفروا لهم بعض زلاتهم وعضوا عليهم بالنواجذ لتستفيد البلاد منهم ولا تنفروهم لئلا يزهدوا في خدمتكم يقول هذا رجل أخلص كل الاخلاص في خدمة أمته وتفانى في حبها ومعالجة أدوائها الاجتماعية وكان جماع ما كافأته به في حياته عبوساً وانقباضاً وتنغيصاً وغصصاً ثم عصياناً على إصلاحه الناجع كالطبيب النطاسي يريد الخير بمريضه المعربد وكلما ناوله الدواء عضه وأدماه وشتمه وآذاه « أريد حياته و يريد قتلي » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان الشيخ كثيراً ما ينشد قول البها زهير :

يا أيها الباذل مجهوده في خدمة أف لها خدمة
الى متى في تعب ضائع بدون هذا تأكل اللقمة
تشقى ومن تشقى له غافل كأنك الراقص في الظلمة

و يشبه الشيخ من كثير من الوجوه غاندي الفيلسوف الهندي المعاصر وان لم يكن له ما لهذا من الشجاعة وذلك ان الشيخ لا يحب الاذى ولا العنف و يحاول احياء كل ما هو آسياوي من اللغات والتقاليد وتعليم الناس الصنائع وعدم الغفلة عما عند الامم الغربية من مقومات العلم . ولا عجب فالعقل واحد مهما اختلفت الأعصار وتباينت الأفكار العقل السليم في هذا الشرق القريب وفي ذاك الشرق الأوسط وما وراءه من الشرق الاقصى لا يختلف في مظاهره الحقيقية عما هو عليه في اوربا واميركا وافريقية .

نعم لم يكن الشيخ طاهر كالمهاتما غاندي في حملاته حتى ولا في تصريحاته . المبدآن متفقان الا قليلاً ولكن ابن الوثنية جسر على العمل بمبداه اكثر من ابن الاسلام . شعار غاندي « هندوساً كنا ام بارسيين نصارى . ام يهودا اياً كنا يجب اذا تاقت نفوسنا الى ان نعيش أمة واحدة ان تكون مصلحة الفرد مصلحة الجماعة ولا عبرة الا لمدلول مطالبه » . اما الشيخ الجزائري فكان يتوقع من القوم ان يقولوا هذا وهو لا يدعوهم اليه الا بالاشارة والمثال البعيد . والحكيم الهندي قال ما اعتقده غير مجمجم فتخلص من قيود كثيرة وأراد أمته علناً ان تنهج سبيله فكانت شهرته شهرة عالمية وانحصرت شهرة الشيخ في بعض أصقاع العرب . وكان بعضهم يقول ان الشيخ ضنين بالافادة حتى ادعى بعضهم « ان الشيخ طاهراً بئر علم ولكن لا ينتفع بها » والحقيقة انه يصعب على الشيخ مجاملة من يتشهى ولا مأرب له الا ان يقال عنه انه باحث وطالب فوائد فلا يرى ان يتعب نفسه في افهام فضولي يسأله في المسفة العليا او في مسائل تعلو عن محيط عقله على حين هو في حاجة الى ان يتعلم القراءة والكتابة . فكان في ضنانته هذه حكيماً ايضاً لا يظلم الحكمة فيلقي دررها بين ارجل من لا يعرف قدرها ولا يتأتى له ان يحسن الانتفاع بها . اما المستعدون للتلقي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والترقي فكان يجهد ان يختصر لهم طريق الوصول الى ما يريدون و يبعث كل حين عقليتهم و يفيض من واسع علمه على أذهانهم و كلما رآهم يحرصون جد الحرص على التقاط فوائده جاد عليهم بما يعلم الا اذا كان ثمة شيئاً لا يعرفه فانه يقول (لا أدري) غير مبال بنقد من يذهبون الى استقلال علمه وعدم إحاطته . فكان الآخذون عنه بالنظر لتحريه الصدق على ثقة من العلم الذي يسمعونه ويستملونه منه لان الشيخ الى التصريح بعدم معرفته أقرب منه الى ايهام الناس انه يعلم كل شيء شأن الموهبين والجامدين ولذلك لم يحسب عليه ان بدت مقاتله مرة لانه يقول بعد التحقيق ويكره التلفيق .

« للبحث صلة »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعاصرون

« الشيخ طاهر الجزائري »

— ٢ —

تآليفه ورسائله

ليست تآليف الشيخ مما يتناسب كل التناسب مع علمه الواسع لان بعضها مما الفه في صباه لنفع المدارس وهو مفيد جداً في بابه وفي حينه ومن تآليفه المطبوعة (الجواهر الكلامية في العقائد الاسلامية) و (منية الاذكياء في قصص الانبياء) و (مد الراحة الى اخذ المساحة) و (مدخل الطلاب الى فن الحساب) و (الفوائد الجسام في معرفة خواص الاجسام) ورسالة في النحو وأخرى في البديع وثالثة في البيان ورابعة في العروض وكتاب (تسهيل المجاز الى فن المعمى والالغاز) وشرح ديوان خطب ابن نباتة . ومن كتبه (ارشاد الالباء الى طرق تعليم الف باء) ورسالة وجداول جدارية في الخطوط القديمة والحديثة . و (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن) وهي المقدمة الصغرى من مقدمتي تفسيره . ومقدمة سماها الكافي في اللغة وهي مقدمة معجم ضاع اكثره . و (التقريب الى اصول التعريب) و (توجيه النظر الى علم الاثر) ومختصر ادب الكاتب لابن قتيبة ومختصر امثال الميداني ومختصر البيان والتبيين للجاحظ . هذا هو المطبوع . اما المخطوط فتفسيره الكبير ويدخل في اربعة مجلدات مخطوطة محفوظة في دار الكتب الظاهرية بدمشق مع جميع ما ظفرنا به [1] من اوراقه . ومن المحفوظ ايضاً كنانيشه وفيها خلاصة مما طالعه من الاسفار وعرض له من الافكار . وله من المخطوطات كتاب (الالمام باصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام) و (مقاصد الشرع) وغير ذلك . وقد احيا بالطبع عشرات من الكتب منها ارشاد القاصد لابن ساعد الانصاري وروضة العلماء لابن حبان البستي والادب

(١) راجع وصف هذا التفسير والأوراق والكنانيش في المجلد ٣ ص ١٧١ من مجلة المجمع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والمروءة لصالح بن جناح والادب الصغير لابن المقفع وامنية الالمعي وتفصيل النشأتين للراغب الاصفهاني والفوز الاصغر لابن مسكويه الى غير ذلك من مقالاته في المجلات العلمية واملاءات جمة كتبت بتواقيع مستعارة لو جمعت لجاءت في مجلدين وثلاثة . والف الشيخ معظم هذه الكتب والرسائل بحسب الدواعي خصوصاً مبادئ العلوم ووضعها في زمن كانت فيه الكتب المدرسية في حكم المعدوم وذلك لينهض بالتعليم الابتدائي ويخلص الناشئة من غلطات المتأخرين المعروفة وحواشيهم وشروحهم المملة المضيعة لاوقات الطالب . ومعنى هذا ان الشيخ انتبه قبل غيره الى فساد طريقة التعليم القديمة وأدرك ان الزمان يقتضي اهل العلم ان يخرجوا الناس من ربقة القيود الثقيلة العائقة عن التحصيل كما انتبه الى كثرة سريان الحشو واللغو الى كتب الدين التي خلط فيها كثير من المتأخرين .

من أهم كتب الشيخ المطبوعة شرح خطب ابن نباتة وارشاد الالباء والتبيان والتقريب وتوجيه النظر ففيها لباب علمه واثر من آثار قريحته تجلت فيها روح بحثه وغوصه على مسائل دقيقة قل ان تسنى لغيره من المعاصرين الوصول اليها . وليس معنى هذا ان سائر ما طبعه الشيخ غير مفيد بل المقصود انه كتب لغرض خاص أريد به تثقيف الناشئة وهذه الكتب هي التي ظهرت فيها شخصية الشيخ وثقوب ذهنه وسعة مداركه وتلطفه في ابلاغ المعاني الى العقول وحرصه على ان يجيل في الاكثر على عالم تقدمه . لان الناس في العادة يقدسون الأموات اكثر من الأحياء .

والشيخ وان كان في مذهبه الديني الى الاجتهاد لكنه في مذهبه التأليفي اقرب الى التقليد يمشي على مذاهب القدماء ولكن بتنسيق وتقسيم بدون ان يشوش القارئ . ولو تيسر للاستاذ ان يسير على نظام اكمل من الذي سار عليه في معيشته وساعده الزمان والمكان على تجويد مصنفاته والصبر عليها قبل نشرها لخلف كتباً وخصوصاً في العشرين سنة الاخيرة من عمره نقرأ فيها صورة عظيمة من جهاده ونبوغه . وبلغني انه دوّن بعض الوقائع التي شهدها ولم نعثر عليها بين اوراقه الخاصة التي سرق بعضها وقت انتقاله من مصر الى الشام . ويقيني ان الرجل لو وفق الى طابعين اغنياء فضلاء يحملونه على العمل على ما خص به من النشاط وشدة الحركة لانتجت قريحته اكثر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مما انتجت في الفروع المختلفة التي طرقها ووزع قواه فيها ولكن نفانيه في الاسراع بحمل النور الى العقول وفسح التبعة التي اخذها على نفسه في الاسراع بانهاض أمته دعواه الى ان يكتفي بما تهيأ له وضعه وتأليفه ناظراً فيه الى مصلحة الناس لا الى مصلحته الخاصة وشهرته في حياته وبعد مماته .

كان محيط الشيخ الذي عمل فيه على عهد الشباب والكهولة ضيق المضطرب لا يتسع لانبعاث همته وكانت المطالب التي يتقاضاها منه حرصه على بث الاصلاح والتعليم كثيرة لا يقوى الفرد على حملها كلها ولو قدر له ان عاش منذ نشأته في محيط اوسع كمحيط مصر وخلا من مدافعة المشاكسين والظالمين ورأى شيئاً من الطمأنينة وسعة العيش لتضاعف عمله لا محالة وعم نفعه مصر وغير مصر وربما كان ظهوره في الشام والعهد عهد ظلمة وجهل أبرك عليها وأنفع لها لان ما اضطلع به وحده لا يضطلع به عشرة علماء على شريطة ان يكونوا في درجته من الاخلاص وشدة الشكيمة وعزوف النفس عن المطامع والدنايا .

وبعد فهذه صورة صحيحة من صور الاستاذ الحكيم عجيبة في خطوطها ونقاطيعها جميلة بالوانها وأشكالها عرضتها لغرابتها لانه ندر جداً في المعاصرين من الاحياء ظهور رجل يماثله في أطواره وحركته وسعة حيلته وبسطته في العلوم اللهم الا اذا كان ممن لم يبلغنا خبره في البلاد النائية والزمان بخيل بمثل هؤلاء النوابغ في كل عصر وقد لا ينبغ اضرابهم في قرون يفادون بكل ما يثفاني الناس في التهالك عليه من مال وجاه ورفاهية وتنحصر لذائذهم في بث افكارهم وآرائهم ويسعدون السعادة كلها اذا نهضوا بانارة عقول اهل جيلهم وقبيلهم .

رسائله الخاصة

والى القارئ الآن جملاً من كتب دارت بيني وبين أستاذنا فيها شيء من مبادئه العلمية وروحه السامي ربما ترجمت عنه لقلتها مثل ترجمتنا وزيادة . وكتابة المرء نمامة على علمه وعقل الكاتب في قلمه واختياره قطعة من عقله . وقد صدرت هذه الرسائل من القاهرة المعزية ومن أجمل مافيها كونها كتبت على البديهة لا كلفة فيها شأن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشيخ في كتبه ومفكراته . وربما كتب الى أصحابه كتاباً وبعثه في البريد بدون ان يطالعه ثانية ولذلك رأينا بعض كتبه غفلاً من التاريخ ايضاً .

سألته مرة عن منشإ الشعوبية فأجاب « واما الزمن الذي ظهرت فيه الشعوبية فلا يحضرني فيه شيء والوقوف على اوائل الاشياء من أصعب المسائل وادقها الا ان الذي ظهر لي ان ذلك حدث بعيد عصر الخلفاء الراشدين لوجود الداعي الى ذلك وهو التفاخر بالجنس الذي هو من عادات الجاهلية التي اتى الدين بابطالها ومن نظر لمنزلة سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي في اوائل الامة زال عنه الشك في هذه المسألة .

ولا يدخل في هذا الامر بحث المؤرخ عن خصائص الاجناس مما يقصد به الوقوف على الحقائق فان هذا نوع آخر . الا ان من بحث عن أحوال الامم ووفى النظر حقه تبين له ان العرب في الجملة لا تساميهم أمة البتة .

وأظن انه لا بد ان تؤلف بعد حين كتب في خصائص الامم وكتب في خصائص البلاد كما الفت كتب في خصائص اللغات تجعل من الفنون التي يعنى بها وتميز عن غيرها ولا تذكر بطريق العرض الا ان فن خصائص الامم لتيسر المشاغبة فيه والمغالطة اكثر من غيره . وكل فن وضعت مقدماته ونقحت مسائله يبدو بسرعة عوار الغالط فيه .

هذا وكما حدث بعد عصر الخلفاء امر المفاضلة بين العرب والعجم حدث امر المفاضلة بين العدنانية والقحطانية وهما الفريقان اللذان يجمعهما اسم العرب . ونشأ بسبب ذلك من الفتن مايعرفه المولع بالاخبار . ولم يزل اثر ذلك باقياً في بعض الجهات الى ما قبيل عصرنا هذا وقد رأيت في بعض البلاد أناساً يقولون الى الآن نحن قيسية وآخرين يقولون نحن يمانية .

كتبت لك ما كتبت والقلم لا يكاد يجري لما حدث لي من الفترة من نحو ثلاثة أسابيع . وسبب ذلك اني اختبرت أحوال كثير من الولايات فوجدتها منقسمة الى حزبين كل منهما يباين الآخر في كل شيء ولم يظهر حزب ثالث يكون معتدلاً ومعدلاً لهما . واذا دام الحال هكذا تأخرت البلاد عما كانت عليه من قبل . وقد نصحت كثيراً من المحدثين من الأحرار بان يعدلوا مشربهم وحذرتهم عواقب الامر غلبوا ام غلبوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فأبوا الا الإصرار على فكرهم وما قلت لهم رأيي الا بعد ان ألحوا عليّ في بيانه وحضر أناس منهم من مركز جمعيتهم وطلبوا مني التفصيل بعد ان بينت لهم ذلك اجمالاً فرأيت انهم يوافقونني في البدء ويخالفونني في النهاية فامتنعت في إتمام البيان وتشاغلت عنهم .

فاني رأيتهم يظنون ان حلهم لبعض مسائل الجبر والمقابلة يحل لهم مسائل ادارة البلاد . ان كثيراً ممن كنا نزدري برأيهم في السياسة من تلاميذ المدارس في مصر هم أرقى منهم في ذلك . وقد اجتمع بنا في هذه الليلة احد المرسلين منهم وسمع منا هذه العبارة وهي ملقاة على صورة تحتمل الجد والهزل فدهش وعرف انها الى الجد أقرب منها الى الهزل وكان يتكئم فاضطر لي الانطلاق فيما يراه من الاخطار التي يصعب تداركها ... اني متشوق لاخبار كثير من الولايات لعلنا نسمع بظهور الحزب الأوسط في واحدة منها فيسري ذلك في غيرها شيئاً فشيئاً . وهذا الحزب يلحقه في اول الامر اشداضطهاد لان الحزبين المتطرفين يبغضانه اكثر مما يبغض احدهما الآخر لاعتقادهم بانه أقرب الى انضمام كثير من الحزبين اليه » .

وقال من كتاب عن القاهرة في ١٩ صفر سنة ١٣٢٨ :

«وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم منبئاً بعودكم من بلاد اوربا فسررت بذلك سروراً شديداً وكنت أتمنى لكم هذه الرحلة من زمن قديم لما أتيقنه من الفائدة التامة العامة في ذلك . فان الاقتباس من الامم المترقية دليل على النباهة لا كما يظن البله من ان في الاقتباس غضاضة ونريد بالاقتباس ما يشعر به هذا اللفظ من تلقي الامور النافعة لا كما يظنه المتكايسون من ان الامم الراقية ينبغي ان يؤخذ منها كل شيء حتى ادّاهم الامر الى ان يقلدوهم في الامور التي يودون هم ان يتخلصوا منها .

واما ما يتعلق بخزائن الكتب في الاستانة فقد خطر في بالي خاطر يرتفع به محذور الامتعاض في جمعها وذلك بان تبقى كل مكتبة في موضعها لينتفع بها المجاورون لها غير انه يؤخذ منها الكتب النادرة وهي في الغالب لا تلزمهم ولا يهمهم امرها وتوضع في موضع معد لها يكون في وسط البلدة . ومن اطلع على دفاتر مكاتبها وجد امكان اجراء ذلك بدون اعتراض يعقل . ولما عملت برنامجاً لكتبها النادرة رأيت ان بعض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المكاتب قد يوجد فيها نسخ متعددة من كتاب نادر فلو أخذ احد النسخ المكررة لم يكن في ذلك ما يقال . وقد كنت ذاكرت بهذا الامر بعض اعضاء الجمعية فاستحسنه جداً وذكر لي انه سيسعى في إبرازه من القوة الى الفعل . ثم عرضت شواغل عاقت عن ذلك .

واما مصر فقد دخلت في الدور المجهول وسيكون اما لها واما عليها . وهذا الدور لا بد منه لكل أمة تريد النهوض بعد العثرة فان ساعدها الزمان والمكان والامكان نالت مناها والا كان لها تململ بسوء البخت بعد التشبث بالاسباب الظاهرة جعل الله سبحانه العاقبة خيراً » .

وكتب ناصحاً وواضعاً خطة للاصلاح الاجتماعي بتاريخ ١ جمادى الاولى ١٣٣٧ :

« ومما يهم الامر فيه اصلاح العادات فان في الشرق كثيراً من العادات التي ينبغي ابطالها كما ان فيه كثيراً من العادات التي ينبغي المحافظة عليها غير انه لا ينبغي ان يستعمل التنكيت في ذلك بل يستعمل مجرد البيان الدال على حسن الشيء او قبحه .

ولا يتيسر الاقدام على هذا الامر الا لمن لا يهمه امر المدح والذم العاجلين بل يهمه حسن الاثر .

ومن العادات الرديئة جداً ان الكاتب قد يمكنه ان يكتب في اصلاح عادة لكنه يرى ان الكلام في ذلك يكفي فيه عشرة اسطر فيرى ان الناس يزدرون بذلك و ينسبونه لقلة القدرة على الانشاء فيترك الكتابة فيه او يسهب إسهاباً لا داعي له من سرد مقدمات معلومة مسلمة لو تركها لكان أقرب الى الفهم وأبعد من الوهم وما ذلك الا من تأثير الحشوية فيهم وقولهم ان الناس نسبوك لعدم الاقتدار على الكتابة . فينبغي ان يكون في المجلة ولو مقدار صفحة تبحث في العادات على اختلاف أنواعها وتعليم ذلك للبنين والبنات . هذا ومن جهة رأي الناس في حقكم فان النبهاء المنصفين منهم يجعلونكم ممن ثبت في حين الشدة ولا تعبأوا بمن يلوم عن جهل وغباوة فان ذم هؤلاء أقرب الى المدح من ثنائهم .

وكتب اليّ يقوّي عزيمتي على العمل :

وارجو ان يكون ما حصل لكم من المروّعات زائداً في نشاطكم في افادة الامة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فانها في احتياج شديد الى من يبين لها الطريق الأقوم من ارباب الوقوف والاخلاص وأعظم ماتحتاج اليه هو امر الاخلاق وما يتعلق بها ومعرفة الامور العمرانية على وجه لا يكون فيه إخلال بمعالي الامور وتنبيههم على عدم التعويل على المدنية التي كان الغربيون قديماً يفتخرون بها و يزدرون بمن لا يتابعهم عليها مما هو مبني على مجرد مراعاة الامور المادية دون غيرها وهي التي جلبت هذه المصائب الحاضرة وقد أشرتم بطرف خفي الى ذلك في محاضرتكم التي القيتموها في مصر حين فراركم من دمشق اليها وقد صرحنا في ذلك في قصيدتنا البائية المطبوعة في الجزء الرابع من منتخبات الجوائب . وقد كان أناس يقرؤونها ويعدونها من آراء حشوية الشرق فما زالوا على ذلك حتى صرح فلاسفة الغرب بذلك . ومما ينبغي ان تحثوا عليه تعلم صنعة ما اي صنعة كانت ولا يكون احد خالياً عنها و يجعل هذا مبدأ جديداً لهذا العصر والتعويل على الرياضة الجسمانية » .

وكتب في غرض الاعراض عن المثبطين من رسالة :

« وقد عجبت من اولئك الذين يسعون في تثبيط الهمم في هذا الوقت الذي تنبه فيه الغافل فضلاً عن غيره موهمين الشفقة .

وكان الاجدر بهم ان يشفقوا على انفسهم و يشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع . ولم ير احد من المثبطين قديماً او حديثاً اتى بامر مهم . و ينبغي للجرائد المهمة ان تكثر من التنبيه على ضرر هذه العادة والتحذير منها ليخلص منها من لم تستحكم فيه و ينتبه الناس لاربابها ليخلصوا من ضررهم . وقد ذاكرني منذ ليلتين احد نجباء الابناء في هذه المسألة وشكا كثيراً منها وعجب لعدم اكتراث المصلحين ببيانها بياناً كافياً شافياً فقلت له : المأمول ان يكون الاوان قد آن لاصلاح هذه العادة التي تهبط بالامة الى الدرك الأسفل أصلح الله الأحوال » .

وقال من كتاب في غرض التربية :

« واؤكد في هذا الكتاب بامور :

(١) = إدخال مبادئ الصنائع في المدارس الابتدائية ويمكن تجربة ذلك اولاً في مدرسة واحدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٢) = ادخال التربية العملية فيها وذلك بتعويد التلميذ على الصدق وان لا يتكلم في شيء الا بعد ان يختبره فان الشرقي اعتاد ان يدعي كل شيء وان لا يقول في شيء لا أعلم وهذا جعله لا شيء عند الغربي .

(٣) = السعي في مدرسة للقراءآت السبع مثل ما كان من قبل . ولا ينبغي ان توضع هذه الأشياء في المذاكرة او ان يخطب فيها فان مثل ذلك ينبغي ان يخطب فيها بعد ان تصير » .

وقال في موضوع التعليم وقد رجوته إرشادي برأيه فيها في المدارس ورأيه في البحث في المخطوطات : « ومما زاد فيه سروري شيئان احدهما الاعتناء بتربية الانجال فان اكثر الآباء يرجحون من حيث يدرون ولا يدرون مصلحة انفسهم وما ذكرتم فهو موافق . والاولى ان يضم الى ذلك صنعة كالخياطة والتفصيل ونحو ذلك وعرفوني بعد حين البروغرام الذي يظهر لكم . وينبغي ان تتولوا بنفسكم بعض التعليم ولو مدة ربع ساعة على طريق احد المغاربة فانه كان يطلب من ولده ان يفيده بعض مسائل بعد ان يشعره بطرف خفي بمظانها فيلقيها الابن على الاب كأنه يفيده .

واما الذين يريدون ان يخفضوا ما رفع الله شأنه ويرفعوا ما خفضه فعما قليل ليصبحن نادمين والزمان يضحك منهم وكذلك الائمة الغربيون الذين يمتون اليهم بوسيلة التقليد لهم فلا يكن في صدرك حرج منهم فهم أغرار وينبغي ان تمحو من لوح الفكر لفظ اليأس فانه أضر شيء ؛ واثبت ففي الثبات جل الحكمة ان لم نقل كلها .

الثاني استفسارك عن وصف الكتب فانه دل على انك قوي حسن الظن بنا حتى تكاد تعتقد اننا لا نقول شيئاً جزافاً كما ان أناساً يعتقدون اننا لا نقول شيئاً الا جزافا . وهنا أذكر لك حكاية سمعتها مراراً ممن أثق بهم وهي ان احد من جمع له بين العلم وغيره من الصفات العالية أرسل الى احد من يميل اليه من النبهاء وقال له أريد ان ننشر بين جماعتنا العلم الفلاني فقال لا أعرفه وانما أعرف العلم الفلاني . فأعاد عليه العبارة فأعاد المسؤول قوله لا أعرفه . فأعاد عليه السائل ما قال اولاً فأراد المسؤول ان يجيبه فأشار اليه بعض الحاضرين اشارة خفية ان يظهر الامتثال ثم قاموا من عنده فقال له المشير : ان فلاناً لم يقل لك ما قال الا وهو يعلم انه ممكن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واذا تحقق الامكان فما عليك الا ان تسعى في إخراج الامر من القوة الى الفعل فسعى وتم الامر . وحصلت فائدة عظيمة من إحياء امر كان دارساً .

ونرجع الى اصل المسألة فنقول : من أراد وصف كتاب ينبغي له ان ينظر فيما قاله مؤلفه في مقدمته او في خاتمته او فيهما معاً و يأخذ خلاصة ذلك والوصف عندهم ليس عبارة عن النقد بل بيان موضوع الكتاب والداعي الى تأليفه . وما في الكتاب من الخصائص وعلى ذلك يتيسر وصف الكتب باسرها حتى كتب الطب فاذا زاد الواصف فصلاً من الفصول ليكون كالنموذج كان أحسن وكثيراً ما يكون وصف الكتاب على هذه الطريقة سبب نشره .

واكثر وصف المؤلفين لكتبهم اما مطابق للواقع او قريب منه . اما المموهون فقليل في الطبقات القديمة . ومن العجيب ان هذا الامر لا يشعر به كثير من نبهاء هذا القطر ولفظ الكثير هنا مجاز وجربوا انفسكم في غير التاريخ ونحوه ففي الحديث يمكنكم ان تصفوا هذه الكتب .

« في دار الكتب الظاهرية بدمشق »

نمرة ٣٥٦ اللطائف في علوم المعارف للدبي

« ٣٦٢ اسماء الضعفاء للعقيلي

« ٣٨٧ معرفة الرجال لابن معين

« ٣٩٠ المشتبه للغساني

« ٣٩٣ الكفاية في علم الرواية

وهذا امر يفيد الناس اكثر من كثير من المقالات التي حررها أناس ليس لهم تتبع ولا معرفة بجعل نتيجة للمقالة حتى صار المطالعون يضيق صدرهم من ذلك . وقد سألني منذ مدة بعض ارباب المجلات عن أحسن المجلات فقلت أصغرها حجماً .

(في ١٥ ذي القعدة ١٣٢٨)

وقال من رسالة :

« مما يهم جداً إدخال مبادئ الصنائع في جميع المكاتب الابتدائية وقد جرب ذلك في بعض المدن فتبين ان ذلك مما يعين على التحصيل ايضاً والفائدة في ذلك مهمة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومما يهم جداً إدخال التربية العملية في المدارس لاسيما المدارس الابتدائية . ومن ذلك ان يعود التلميذ على ان لا يتكلم بما لا يعلم وان يتفكر قليلاً اذا سئل عن شيء لم يسبق له به اختبار . وهذا امر ممكن قريب المأخذ قد عمله أناس فنجحوا فيه — وأرجو ان لا تقرأ أفكاري على أناس من الحشوية او الفلاسفة الخياليين فاني أربأ بها عنهم . نعم هؤلاء ينبغي ان يعرفوا ذلك بعد العمل به . ونصيحتي لكل محب ان لا يشتغل بمثل هؤلاء فانه انفع . (في ٢١ ربيع الاول سنة ١٣٣٧)

« هذا وقد سرني كثيراً زوال المباينة بينكم وبين الذين نود عدم مباينتهم . وهذا ايضاً من اثر النشاط فان النشاط اذا زال لحق المرء الملل من كل شيء واذا حصل قويت الهمة ورأى البعيد قريباً وأقام للناس اعذاراً ونفعهم وانتفع بهم .

* * *

« قد جرى منذ اسبوعين مذاكرة سرية في طريقة ترجمة احدى دوائر المعارف الفرنسوية فان الناس في احتياج لذلك . وقد تبين من المذاكرة ان امر المال سهل فان احد الحاضرين تعهد بذلك وقال ان له إخواناً لا يتوقفون في الامداد ولكن المهم وجود مترجمين كافين يتعهدون بالقيام بذلك الى النهاية فقلت ان هذه المسألة تحتاج الى تفكر وبحث شديد . وقد استقر الرأي على ان تدرس في نحو ثلاثة اشهر ووعدت بالكتابة لكم في ذلك فابحثوا في المسألة فيما بينكم وبين نفسكم ثم فيما بينكم وبين إخوانكم الذين يناسب البحث معهم في ذلك على صفة خاطر قد خطر وكان معنا في المذاكرة الفاضل المقدام السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وهو يأمل ان يوجد بارشادك نحو سبعة مترجمين . وقد تشبث بهذا الامر منذ سنين أناس ظنوا ان المال يأتي بكل شيء فتبين لهم غلطهم وأعرضوا عن الامر وهذا امر بعيد جداً ولكن هو في درجة الإمكان القريب من الوقوع وانما يحتاج الى الهمة ومعرفة الطريق وقد كان بعض الحاضرين يريد ان يجعل زمام الامر في يد الحكومة فطلبنا ان يكتم ذلك عنها فانه لا يؤمل ان تقدر عليه فان هذا الامر محتاج الى الحكمة اكثر من احتياجه الى الحكومة » .

وقال في رسالة وقد سألته عن التاريخ الهجري وانتقاد بعضهم على استعمالنا له :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« عجبت لمن يسعون في ان نهجر التاريخ الهجري و يفاتحوننا في ذلك كأنهم لا يعلمون انا نعلم مايرمون اليه عن بعد . لكل أمة شعار اذا تركته طمع فيها واستضعف جانبها وربما صارت بعد مدمجة في غيرها . وقد سعى أناس منذ عهد بعيد في ان يضعفوا ما يقوي امر الاسلام عموماً والعرب خصوصاً فنجحوا بعض النجاح فطمعوا في ان يقضوا عليه فلم يجدوا اقرب الى ذلك من اضعاف امر اللغة العربية والسعي في تبديل خطها والتزهيد في الكتب التي كتبت به فجعلوا ذلك دأبهم وديدنهم حتى اثروا في كثير من ابناء جلدتنا الذين يظنون انهم على غاية من الذكاء والوقوف على أسرار الامم فكان ما كان مما هو معروف ثم زاد الامر فطمعوا في تبديل التاريخ الهجري وساعدهم على ذلك ، جبت مصر ففرحوا فرحاً لا مزيد عليه . وقال بعضهم الآن شفينا الغليل من هذه الامة غير ان كثيراً ممن انتبه لهذا الامر سعى في إعادته على قدر الإمكان فامتعض اولئك القوم وصاروا يلمزون كل من يسعى في ذلك .

وهذه المسألة نظراً لتعلقها بتاريخ تأخر الشرق لا يتيسر ان يكتب فيها أقل من نحو ثلاثين صفحة في نحو ثلاثين يوماً . وليت شعري كيف يلام المسلم على ان يؤرخ كتابه بالتاريخ الهجري فهل انقرض التاريخ الهجري وهل يريدون ان ينقرض واصحابه أحياء ؟ فان قالوا ان المقصود توحيد التاريخ في الامم واوربا هي القوية الآن قيل ان لاوربا تاريخان احدهما شرقي والآخر غربي وكل يؤرخ به قوم منهم فهل اوقف ذلك التجارة او اثر في المدنية شيئاً . ولم لا يكلفون تغيير مكاييلهم وموازينهم وأذرعهم لتتحد المقاييس في الامم . وتغيير ذلك ليس فيه غضاضة بخلاف التاريخ . وقد رأيتهم يعتذرون عنهم و يعدون ذلك مناقة في الأخلاق فانظر ما وصلنا اليه» .

وهذا الكتاب يدلنا على اشياء كثيرة من سيرة الشيخ ومرماه ونصاعة حجته وجميل مناقشته لخصوم مشربه .

وكتب : « كان كثير من الحشوية يلومونني في تنبيه المؤلفين والطابعين على ما يلزمهم و يقولون ان هذا لا يفيد غير العداوة وانت تضرب في حديد بارد وما دروا اني ممن يقول بان العداوة في محلها أجدى عندي من ان اكسب المحبة من غير وجهها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وان معاداة الغاشين لي مما يسرني كما ان محبتهم لي مما يسوءني غير ان الزمان ابان ان كل نصيحة لا تخلو من تأثير ولو بعد حين فان كثيراً ممن لحقتهم صدمة منا ومن اخواننا الذين أعطوا هنا عهداً ان لا يغشوا الامة قد صاروا يراجعون بعض مراجعة غير ان التأثير في المطابع كان اكثر .

واما امر التصحيح فلم يهتد المصلحون الى طريقة في اصلاحه . بحيث ان بعض الناس طلب الينا ان نبحث له عن مصحح لكتاب المحكم لابن سيده وهو اكبر من لسان العرب ليشرع في طبعه فبعد بحث كثير تبين انه لا يقوم بتصحيحه الا فلان وهو احد اخواننا الذين لا يساعدهم نظرهم في املاكهم الجمة على التفرغ لمثل هذا الامر . فأرجيء الآن طبع الكتاب لهذا الامر . فانظر الى الحال التي وصلت اليه مصر . فما قولك في غيرها الا ان الذي يسر في مصر انتباهها لنقصها بخلاف الأقطار الأخرى والانتباه للنقص هو نوع من الكمال . أرانا الله سبحانه الكمال على حقيقته بمنه . عليكم بالرياضة الجسمانية والرياضة الروحانية . و يدخل في الرياضة الروحانية التباعد عن سماع الاخبار التي أولع بها المرجفون . فانه لا قيمة للزمان عندهم وهو عند الحكيم اغلى من الجوهر . (١٧ رمضان سنة ١٣٢٦)

وكتب من رسالة :

« قد سرني في مصر في هذه المدة ان العقلاء بدأوا يجتمعون في الفكر والتعاون على صفة يقتضيها الموقع وهو عدم التظاهر من اول الامر كما يفعله طالبو الشهرة وهذا امر لا يشعر به الا من اطمأنوا اليه . وقد كانوا قبل ذلك يقول كل واحد منهم نفسي نفسي . واذا استنجده احد لامر نافع قال ولو بلسان الحال « عليك بخويصة نفسك » .

قد اجتمعت في هذا النهار بعالم اورباوي قد حل الخط الثمودي الموجود في مدائن صالح وأخبرني ان كتابه قد تم طبعاً وهو الآن يسعى لجمع لغة اهل نجد فانه وجد ان اكثر الكلمات العربية لم تزل باقية عندهم وكان قد ساح في تلك الجهات وهو ممن يتعصب للغة الكتاب العزيز اكثر مما يتعصب اهلها لها .

كان قد أسس في اميركا مدرسة يقرأ بها الطالب وهو في بلده وقد كنت رأيت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في سورية احد طلبتها وهو يدرس فيها فقاد فيقاً وأظن انها تسمي المدرسة الكوتشوكية وقد كان ترجم قديماً الى العربية بعض قوانينها وطبعت ثم نفدت النسخ بحيث اني بحثت عنها فلم اجد نسخة بل لم اجد من يعرفها فان وجدتم كتاباً بالفرنسوية يتعلق بها فترجموا منه ما تيسر مما يوافق البلاد ٠

وقد سعى بعض الواقفين على ذلك من نحو عشر سنين في بث هذا المقصد الا انه على وجه خفي حيث كان نشر العلم اذ ذاك يعد من أعظم الأجرام ٠ والآن لم يبق مانع ومجرد نشر أسلوبها وقوانينها بفيد فضلاً عن التشبث بشيء من ذلك» ٠

وقال في كتاب :

« وقد وقفت على كثير من الجرائد الجديدة فوجدت جل مباحثها في بيان فوائد الحرية ٠ ورأيت الناس قد ملّوا من هذا البحث لان الحرية ان كانت على المعنى الذي يقول به الحكماء فهي مما لا يختلف فيه اثنان من ذوي النباهة ٠ وان كانت على وجه آخر فربما كان ضررها اكثر من نفعها ٠ ولست أعني بالحكماء هنا أمثال الحكيم الذي كان يقال لكم انه تعلم الحكمة في سويسرة في ثلاثة اشهر لان مثل تلك الحكمة ما يزيد خبالاً ٠ وما ارى اكثر الفتن التي وقعت في كثير من الولايات الا من مثل هؤلاء لا سيما ان ضم الى دعوى الحكمة دعوى الحرية وهو لا يملك نفسه ٠ وقد كان ارباب الحدس يتصورون انها تكون اشد الا ان الألطاف الالهية خففت فخففت ولله الحمد ٠ (٢٣ شوال سنة ١٣٢٦) ٠

وذكر في جملة كتاب حوى مسائل كثيرة في نسخ الكتب واخذها بالتصوير الشمسي والعناية بوضع فهرس لكتب رومية باللغة العربية ثم قال :

« من اغرب ما في القدس امتزاج المسلمين مع النصارى على وجه غريب بحيث لم تؤثر فيهم الطريقة التي اتخذها المستبدون في تمشية امرهم وان هلك الحرث والنسل ٠ وقد رأى بعض الباحثين ان هذا امر دبره صلاح الدين الايوبي برأيه الثاقب منعاً لما حدث من قبل بسبب سوء سياسة العبيديين الذين كانوا بمصر تغمدهم الله برضوانه ٠

خذوا على نفسكم عهداً بان لا تؤخروا جواب مكتوب لاحد وخذوا العهد على من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان على شاكلتكم بذلك فان في ذلك فوائد جمة والمكتوب يسوغ ان لا يزيد على خمسة اسطر . (٤ شوال سنة ١٣٣٧)

وقال ايضاً :

«وارجو ان لاتقصروا في كتابة نبذ تتعلق بالتربية وتدبير المنزل واصلاح العادات وما أشبه ذلك . واؤكد عليكم في ان لا تشتغلوا بشيء من الجدل فان الجدل يبطي عن العمل . وخذوا من عنان قلمكم لئلا يجري الى غير مدى والاعتدال أقرب لحصول ما يبتغى .

وذكر في رسالة ان الكتب التي يجب ان توصف :

١ = أرجوزة ابن سيده في الادب وهي من قبيل الملح اللغوية في نمرة ١ من الادبيات المنظومة مع ديوان ابي العتاهية تزاد فيها نثراً في الآخر الصاحب وما يميل اليه من دواوين الشعر والكتب وما يتقنه من العلوم والصنائع او ما يتجر به وما يؤثره من الأخلاق ونحو ذلك و يتيسر عمل ذلك في جدول في صفحتين او اربع .

٢ = المجمل في اللغة في الظاهرية نسخة منه ناقصة من الطرفين .

٣ = المغرب للمطرزي .

٤ = رد ابن السيد على رد ابن العربي على شرحه لديوان المعري .

٥ = اعتاب الكتاب لابن الابار .

٦ = عروض ابن معطي وبديعيته .

٧ = بغية المؤانس من بهجة المجالس والاصل لابن عبد البر .

٨ = قانون البلاغة لابي طاهر محمد بن جبلة البغدادي في الظاهرية .

٩ = مختصر اصلاح المنطق .

١٠ = الاربعين السلفية وهي مرتبة على البلدان . وممن سمعها على السلفي الملك الناصر صلاح الدين يوسف ووالده نجم الدين ايوب بن شادي بقراءة القاضي سنا الملك هبة الله بن جعفر بن سنا الملك محمد بن هبة الله بن محمد الاسدي .

ينقل صورة السماع فقط . اه

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net